

مقدمة

إنها الثورة.. الكلمة الخالدة.. التحول الكبير الذى يغير التاريخ.. ثورة شعوب العالم الثالث التى طال انتظارها، ثورة عالم الجنوب المهمل المستقبل.. العالم المتأخر النامى كما يسميه العالم المتقدم.

ثورات الربيع العربى؛ بشائر تحرير العقلية العربية وسعيها للنهضة الحقيقية، التى طال انتظارها؛ نهضة نحو عالم الحداثة والعدالة الاجتماعية والرغبة فى التغيير؛ ومقاومة الظلم والتخلف، الذى أغرق شعوب العالم الثالث والمنطقة العربية لقرون طويلة مظلمة. إن هذه الثورات والانتفاضات الشعبية العارمة، وغيرها من حركات التحول الاجتماعى، يجب أن يواكبها ثورة موازية؛ ثورة لتحرير العقل العربى باتجاه العلم والمعرفة والاجتهاد الدينى المدروس؛ ثورة لتجديد المفاهيم البالية التى تعيش فى ظلام الماضى الذى ولى؛ تجديد فى جميع مناحى وجوانب الفكر العربى الحديث: إن ثورة تحرير العقل العربى لن تصلح فى التغيير للأفضل بدون الخروج مما وصلت إليه أوضاعنا العربية والإسلامية المزرية؛ ابتداء بالجهل، والتخلف، والظلم، والقهر، ومرورًا بالقمع، والبطش، والإذلال، والمهانات، والملاحقات، وسجون التعذيب، وتكميم الأفواه ومصادرة العقل العربى ومقاومة محاولات تجريده بحجة الالتزام بتعاليم السلف؛ كل هذا يتم لمصلحة أنظمة حكم مستبدة؛ أو حاكم ديكتاتور طاغية تولى حكمه بطريقة غير شرعية؛ وغير منتخب ديمقراطياً أو شورياً إسلامياً؛ مستخدماً جيشه وشرطته فى قهر شعوبهم المغلوبة على أمرها؛ وعادةً ما يستحوذ هؤلاء الحكام الطغاة على الحكم بنظام الوراثة المباشرة أو غير المباشرة وعلى المال والسلطة معاً. ويقوم المشرعون الفاسدون عادة التابعون هؤلاء الطغاة، غير المحدد حكمهم بسقف زمنى كالعادة، يقوم هؤلاء المشرعون من خلال كهنتهم ومؤسساتهم الدينية الباطلة وغير الشرعية، والتى تحتكم إلى قوانين تم تفصيلها

لمصلحة الحكّام الطغاة، بتقسيم الناس إلى جماعات متناحرة؛ مما يصب في مصلحة استمرارية هذا الحاكم، ولتقوم المؤسسات الرسمية، اجتماعية كانت أم دينية، والتي تأتمر بأمر هؤلاء الطغاة المستبدين باستخدام جميع أساليب القهر والظلم ضد كل من ينطق بكلمة حق أو ينتقد الأوضاع القائمة أو يثور ضد هذا الحاكم المستبد، ويرسمون خطوطاً حمراء مرسومة لشعوبهم، والتي يمنع تخطيها أو تجاوزها. ومن خلال دساتير وتشريعات مختلفة وصفية، مصممة لخدمة أنظمة الحكم الفاسد.

هذا فيما يتعلق بالسلطات الغاشمة الحاكمة لهذه المجتمعات العربية، أما بالنسبة لعقلية الإنسان العربي نفسه، المحكوم من هؤلاء الطغاة، فقد أجمعت معظم الدراسات الاجتماعية المستفيضة المحايدة، والتي تعمقت في غياهب الشخصية العربية وسبر أغوارها فقد توصلت إلى نتائج جوهرية يهمننا كشفها واستعراضها في هذا البحث التفصيلي الذي نحن بصدده في هذا الكتاب؛ هذه النتائج توضح أن هذه العقلية تحتاج فعلاً إلى ثورة تجديد شاملة تغطي جميع الجوانب الفكرية والسلوكية لهذا المجتمع.

لقد تعرضت العقلية العربية للتحلل، والتفكك، وفقدان مقوماتها الأساسية التي جعلتها في يوم من الأيام رائدة للحضارة والإنسانية. إن الضعف والتفكك العربي وفساد العقلية العربية ليس وليد اليوم أو أمس القريب، وإنما له أصول وتراكبات نفسية متجذرة في التاريخ العربي الإسلامي حتى أصبحت ثقافة العرب مخالفة لتعاليم الدين الإسلامي الذي يدنون، وبدت واضحة في النزاعات المستمرة على السلطة منذ قيام الدولة الأموية مروراً بالدولة العباسية ثم نكوصهم على أعقابهم من الأندلس، ووقوعهم بعد ذلك فريسة تحت قبضة الدولة العثمانية، وقد أطلقوا مسمى الخلافة الإسلامية على هذه الدول التي أيدت بيد أعدائها من العرب أنفسهم نتيجة للتآمر، والخيانة؛ وحب السلطة؛ وسعيًا وراء تكالبهم على السلطة؛ والسلطان ولا ينفى هذا إخلاص وصدق وتفاني كثير من أعلام العرب وقادتهم الأفاضل من خلال الدولة الأموية والدولة العباسية في بناء حضارة إسلامية إنسانية رائعة، قادت العالم إلى طريق التقدم والرفق، ولكن لهدم هذا الصرح الشامخ عوامل عدة منها الابتعاد عن العقل والتخلف والترعة المستمرة في العودة إلى الماضي.

إنني على يقين تام أننا بطرحنا العلمي الدقيق لأسباب تخلف العقلية العربية ومشكلاتها المتعلقة بقضايا الفكر والتنمية والثقافة؛ يمكننا أن نواكب ثوراتنا العربية التواقفة للتقدم والتغيير للأفضل بمشروع فكري وخطارطة طريق حديثة، تحمل الفكر والعقل العربي محمولاً على طاقة

هذه الثورات المتدفقة لتحقيق واقع عربي جديد؛ متقدم وناهض؛ ونصنع عالماً عربياً جديداً ومختلفاً وأكثر حداثة، لكن يظل السؤال المهم دائماً: هل يستفيد صانعو القرار السياسي الجدد فيما بعد الثورات من تلك الأطروحات الاجتهادية، والتي حملها على عاتقهم مفكرون كبار في الفترة الأخيرة من أمثال: د. عابد الجابري وطيب تيزيني، ومحمد أركون، ونصر حامد أبو زيد إلى آخر هؤلاء المجددين العظام؛ أم ستظل مجرد أفكار تقدمها النخبة العربية المعزولة في مجملها عن الواقع العربي وعن القاع الاجتماعي؟

إن فكرة وأطروحات كتابي هذا إنما هي محاولة متواضعة للمساهمة في صناعة وصياغة عالم عربي يخرج من الواقع الذي هو فيه ومما هو مقلوب ومقلوب ومنصوص عليه؛ وذلك من أجل تحرير العقل العربي من عقال ما هو مكتوب ومرسوم مسبقاً؛ وإخراجه من القوالب والأفكار الجاهزة، والخروج برؤية فكرية وثقافية وسياسية وتنموية جديدة في ظل وجود لحظة تاريخية تشكل زلزلاً سياسياً واجتماعياً في العالم العربي اليوم.

إننا يجب علينا كمفكرين ونخبة مثقفة أن نقود مجتمعاتنا للدخول في بناء الدولة الحديثة وتكريس مفهوم هذه الدولة، وخلق منظومة المواطنة والتعددية، والتسامح والحرية، والإيمان بضرورة بناء إنسان عربي متحرر في فكره؛ يؤمن بالحداثة؛ أكثر وعياً وإدراكاً لحاضره ومستقبله؛ مع وجود تنمية حقيقية تمزج بين التنمية الاقتصادية والتنمية الإنسانية.

إن أحد الأركان المهمة لمنظومة التحديد التي يجب أن يمر بها العقل العربي للخروج من حالة التخلف هي إعادة النظر في نظم التعليم؛ لأن التعليم هو القاعدة الأساسية والرئيسية في بناء المجتمعات الحديثة؛ وإذا لم يصلح التعليم؛ فلا يمكن إصلاح أى شىء؛ وإذا صلح التعليم؛ فإن المشروع الإصلاحى سوف يشمل كل شىء في مؤسسات وجامعات المجتمع على السواء؛ ولذلك فإن ثنائية التقدم والتخلف متلازمتان لا تنفصلان من حيث الصراع على أيهما يتقدم على الآخر: التقدم أم التخلف؟

إن المجتمعات التي لديها طموح خلاق وفكر خلاق هي المجتمعات التي لديها الرغبة الحقيقية والإرادة العظيمة في تحقيق التقدم؛ أما المجتمعات التي يحمل أبنائها الفكر المختلف الكسول الذي ينجح إلى فكر غيره؛ أيًا كان في الماضي أو الحاضر ولا يستطيع أن ينتج فكره الحديث المميز؛ فإنها تظل دائماً وعلى الدوام في مؤخرة الدول والمجتمعات.

إن الإصلاح الحقيقى في العقل العربي يبدأ في الأساس من الإصلاح الدينى؛ الذى بدأ

في العالم العربي والإسلامي منذ ما يزيد على مائة عام، ولكنه لم يحقق النتائج المرجوة؛ لأنه ظل مجرد وعظ وإرشاد؛ والناس عادة لا تعمل بالمواعظ بل بتغيير تصوراتها للعالم ونظرتها للكون، ومن ثم فالعودة إلى تأسيس العلم والفلسفة والتجديد الديني؛ وتحويلهم إلى نظرية تحديث في الفكر العربي؛ هو السبيل إلى الإصلاح الجذري؛ والانتقال من الإصلاح إلى ثورة فكرية تتأصل أولاً في شعور الجماهير؛ وتقدمهم بتصور ثوري للعالم توأكب الثورات المطالبة بالحرية الآن.

إن العقل العربي؛ وبالتالي الإنسان العربي العادي؛ سجين في سجون منيعة متعددة الأصناف والأسوار؛ وما إن يظهر بعض من ذوى الأفكار النيرة لتحرير الناس من سجونهم المركبة حتى يتعاون على قمعه، ورفضه، وإلغائه كل من السلطة والمجتمع بأفراده السجناء أنفسهم الذين ألفوا سجنهم الدائم بل إن معظمهم لا يعي سجنه؛ أى لا يدري أنه سجين أصلاً؛ لأنه ولد وعاش في هذا السجن الكبير؛ وسيموت فيه؛ فالعقل العربي سجين قهر المجتمع الذى يفرض عليه أن يفكر ويتصرف، ويسلك تبعاً لمستلزمات ومحددات ومسلّمات العقل المجتمعي السائد؛ والمفارقة أن الإنسان يخضع لهذه المسلّمات القاهرة دون وعي؛ بل وتصبح جزءاً من عقله الواعي يدافع عنها باعتبارها تمثل قيمة الخاصة؛ ومن واجبنا نحن النخبة المثقفة أن نميط اللثام عن أوجه التخلف داخل العقل العربي، ونكون وسيلة لإثارة هذا العقل العارق في ظلام الماضى السجين، ونضع له خطة طريق الإصلاح والاجتهاد والتنوير لبناء منظومة الفكر العربي الحديث.

د. حسام كمال